

تعريف الحضارة الإسلامية

يطرح تعريف الحضارة صعوبات كثيرة وتعقيدات تتجاوز الأفراد لما يكتنفه من غموض ولتطوره وتعدد وجهات النظر حوله. فمنذ ظهوره في القرن الثامن عشر والأفلام لم تتوقف عن البحث عن معنى له يتوافق مع وجهات نظر كل واحد. وحتى نقرب المعنى سنعمل على تعريفه بشكل شامل يحاول تتبعه

في الأدبيات العربية

في القواميس العربية نجد تعريفا مقتضبا جدا، نجد تعريفا لغويا يقول:

الحضارة من حضر يحضر حضورا وحضارة بالكسر، وتعني الإقامة بالمدن والقرى (الأماكن المسكونة)، وهي خلاف البدو.

في الاصطلاح وجدنا تعريفا وحيدا عند ابن خلدون يقول:

الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله. فلكل واحد منها صنائع في استجاداته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضها وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملذذ والتنعيم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه للملك.

2001، ج1، ص.216

فالملاحظ أن التعريف يميز بين البداوة والحضارة ويقابل بينهما، وهذا يعني تمييزا بين بسيط (بداوة) ومعقد ومتطور (حضارة)، والثاني أحسن من الأول وأفضل منه. وهذا ما يعطي للتعريف مفهوما قيميا فهناك عالم (المدن) بتطوره الكبير وتقدمه العالي وعالم البدو المتخلف والمتطلع للعالم الأول.

ويؤكد هذا دوزي في تكملة المعاجم العربية، حيث كتب:

الحضارة (بالكسر) حالة الترف والازدهار والرفاهية التي يدل عليها ثراء الزينة والملابس وجمال الحدائق والعمارات وفخامة المآدب إلى غير ذلك

في الأدبيات الغربية

فيتداول مصطلحان للتعبير على هذا المعنى

Civilisation et Culture

فالأول Civilisation يترجم بحضارة وهو مصطلحنا، ويظهر أنه حديث النحت إذ لم يظهر إلا في القرن 18م، وقد نحت من الكلمة اللاتينية Civilis التي تعني (City) Citizen أي المدينة وهو هنا يلتقي مع تعريف القوامس العربية.

ومنه: Civilise et Civiliser اللتان ظهرتتا في القرن 16م

1732م استعملت Civilisation بمعنى حكم قضائي: تحويل فعل إجرامي إلى مدني

1756م استعمال قيمي حيث يقابل بين الحضارة والبربرية، وشعوب أو هي أقلية متحضرة وشعوب بل أغلبية متوحشة تحتاج إلى التمدين ومن هنا استعمل الفعل السابق بمعنى صقل الأخلاق والسلوكات. فالحضارة في هذا المعنى تعني حالة من تطور ظروف الحياة والمعارف وقواعد السلوك والأخلاق في مجتمع ما (متمدن أو متحضر. ويلاحظ إدخال معيار التقدم والتحسين نحو مثال عالمي عيار عن مجتمع يعتب ر أو يعتبر نفسه متقدما ومثالا يحتذى، فتكون بذلك ضد البربرية والتوحش.

ومن هنا نلاحظ أن المصطلح استخدم بصيغة المفرد؛ فلا توجد إلا حضارة واحدة (الحضارة الأوربية وخاصة الفرنسية) والكل يلهث وراء بلوغ مستواهاها، وكحكم قيمة.

وقد انتشر في كل أوروبا، مع مقاومة في هولندا وإيطاليا.

في القرن 19م، صار المصطلح يستعمل بصيغة الجمع Civilisations التي صارت تعني:

مجموعة من الخصائص المميزة أو الخاصة بمجتمع أو منطقة أو شعب أو أمة في كل المجالات الاجتماعية والدينية والأخلاقية والسياسية والفنية والفكرية والعلمية والتقنية.

لقد أصبحنا أمام حضارات متعددة لكل واحدة إنجازاتها وخصوصياتها التي تغنيها عن طريق التبادل وتحافظ عليها عبر الأجيال عن طريق التربية.

أما الثاني Culture فقد استعمل لوقت طويل كمرادفين، ثم ظهرت الحاجة للفصل بينهما.

كانت الكلمة معروفة منذ عهد الرومان، ومنذ القرن 18م حظيت باهتمام كبير من قبل الألمان، حيث ميزوا بينها وبين الحضارة فخصصوا لها ما يتعلق بالعقل من مبادئ وقواعد وقيم ومثل، بينما تركوا للحضارة مجموع المعارف التقنية التي تسمح بالتأثير في الطبيعة. وهو نفس الشيء الموجود في فرنسا حيث دلت على الشكل الشخصي لحياة العقل.

في نهاية القرن 19م، أخذت بعدا آخر عندما استخدمها الأنثروبولوجيون

(Tylor E.B., Primitive culture, 1874)

بمعنى حضارة لكن تقتصر على حضارة الشعوب البدائية التي تقابل حضارة الشعوب المتقدمة. ومنذئذ صارت كل إنجازات شعب معين في منطقة ما وفي جميع الميادين كان بسيطاً أو معقداً. وبذلك فقدت كل بعد قيمي، وتوسع هذا التعريف ليشمل الحضارة بدورها بحيث صار هذا المفهوم الأنثروبولوجي واسع الانتشار والاستعمال.

وبناء على هذا التعريف فيمكن القول إن الحديث عن أي حضارة يتطلب حضور العناصر التالية:

1- مجال جغرافي شاسع أو ضيق (أرض-تضاريس-مناخ-غطاء نباتي-وحيش) تنطلق منه ويعتبر مركزها ومسرح تطورها دون أن يعني ذلك عدم توسعها في مجالات مجاورة مختلفة عن مجالها الأصلي.

2- مجال ثقافي يتميز بمجموعة من الملامح الثقافية، وقد ينقسم داخل الحضارات الكبرى إلى وحدات ضيقة.

3- القدرة على الأخذ والعطاء والقبول بتنقل الممتلكات الثقافية: تقنيات-أفكار-طقوس-دين-أغاني ورقصات-منتجات-أطعمة...

4- مجتمع في حالة حركية وتفاعل داخلي وتوتر دائم بين عناصره وفئاته مجالته (مدن//بوادي).

5- نظام اقتصادي، فكل حضارة خاصة في بدايتها تعتمد على مورد اقتصادي أساسي قبل أن تطوره تبعاً لتطورها.

6- عقلية وذهنية مهيمنة تعم كل المجتمع المشكل للحضارة، فهي التي تملي المواقف وتوجه الاختيارات وتجدر الأحكام المسبقة وتدفع حركات المجتمع في اتجاهات معينة. وهي طبعا ثمرة إرث بعيد ومعتقدات وخوف وقلق واع أو غير واع تجعل ردود الفعل غير منطقية ولا محكومة حتى بالأناية الإنسانية. ولا تتبدله الحضارات لأنه ميزتها ولا يتغير بسرعة إذ يبقى تطوره؛ إن حصل، بطيئاً جداً.

ويشكل الدين نقطة قوية في قلب الحضارات، فكل الحضارات تسبح في الديني والغيبوي والسحري؛ لكن بدرجات مختلفة، وتمتاز منه أقوى انفعالاتها.

7- العمر المديد: الحضارات نوع من الماضي الحي، وتعيش خارج الأحداث العارضة، لأنها امتدادات زمنية طويلة تعيش على عشرات القرون أو آلاف السنين حيث تشكلت هويتها واكتملت عناصرها. وقد تتراجع أو تضعف خلال هذا الزمن أو تخضع لحضارة أخرى، ولكنها لا تموت وعادة ما تنتظر اللحظة المناسبة للإزهار والانبعث من تحت رمادها.

هذا تعريف تقريبي للحضارة عامة، فماذا نعني بالحضارة الإسلامية؟
إنها أولا هذا الذي ذكرناها كله، وتعتبر واحدة من الحضارات الحية والنشيطة في العالم المعاصر حتى ولو لم تكن في الصدارة. وبقي أن نعرف ما يخصها.
يطلق عليها نعت "إسلامية" لأنها قامت في المجال الذي انتشر فيه الإسلام وتحت لوائه وتوجيه منه وبالتفاعل مع ثقافات الشعوب التي انضمت إليه.
وتنتشر على مجال جغرافي شاسع يمتد من الفلبين وغرب الصين شرقا حتى المحيط الأطلنطي غربا، ويتميز هذا المجال بالتنوع بحيث يمكن التمييز داخله بين عدة مجالات فرعية، وهي:

- المجال الأندونيسي (جنوب شرق آسيا بكل دوله وجزره وأقلياته)
- المجال الهندي (بنغلاديش-باكستان-الهند)
- المجال الإيراني-التركي (إيران-أفغانستان-جمهوريات آسيا الوسطى-غرب الصين-تركيا-القوقاز)
- المجال العربي (شبه الجزيرة العربية-العراق-الشام)
- المجال الإفريقي (دول شمال إفريقيا-دول إفريقيا جنوب الصحراء(الساحل))
- الأندلس (مفقود).

وتمتد زمانيا على مدى أربعة عشر قرنا بداية من البعثة النبوية أو الهجرة إلى المدينة وحتى الوقت الراهن. وعرفت خلال هذا العمر تقلبات كثيرة، لكن يمكن أن نقول تجاوزا إنها هيمنت على الريادة العالمية وكانت مصدر إلهام لكل الجيران ومساعدة على انطلاقهم طيلة تسعة قرون (حتى القرن 16م/10هـ). ومنذ العصر الحديث بدأت زعامة العالم الحضارية تنتقل إلى أوروبا التي ما لبثت أن فرضت نفسها على حضارات العالم وأخضعتها لسيطرتها خاصة مع الحركة الاستعمارية ولم يكن مصير الحضارة الإسلامية مختلفا. فبالرغم من مقاومتها فقد صارت تابعة لهذه الحضارة تنقل منها دون ان تتخلى عن منافستها.

ويجب أن نشير إلى أن مراكزها تنقلت طيلة هذه الفترة بين عدة مناطق، فالبداية كانت من الحجاز (المدينة المنورة-مكة) وبعدها الشام ثم العراق. وبعد سقوط الخلافة العباسية صارت الزعامة لمصر والمغرب والهند المغولية قبل أن يصعد نجم الأتراك العثمانيين الذين شكلوا آخر الوجوه الناصعة في هذه الحضارة.

هذه هي الحضارة التي نود أن نتعرف على بعض خصوصياتها ومميزاتها حتى نقرب منها أكثر ونفهم بعض مكوناتها وكذلك موقفها مما يحدث في العالم حاليا.

